مصطفى الغرافي

محاضرة الخميس 19 مارس 2020

لطلبة ماستر المناهج: الفصل الثاني

مادة: قضايا نقدية تراثية.

قضية اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم

تناولنا في المحاضرة السابقة قضية "القديم والمحدث". ونخصص محاضرة اليوم لقضية نقدية على جانب كبير من الأهمية هي قضية "اللفظ والمعنى".

مثلت قضية اللفظ والمعنى المشكلة الإبستيمولوجية المحورية في النظام المعرفي البياني؛ فهي المشكلة التي أسست هذا النظام، وبقيت تغذيه منذ عصر التدوين إلى اليوم، حيث هيمنت هذه المشكلة على تفكير اللغويين والنحاة، وشغلت الفقهاء والمتكلمين، واستأثرت باهتمام البلاغيين والمشتغلين بالنقد الأدبي[1]. وقد ارتبطت ثنائية اللفظ والمعنى، منذ نشأتها الأولى، بإشكالات الدين وهواجس العقيدة، حيث انبثقت أول مرة من "الصراع القائم حول مشكل تأويل القرآن من جهة والاختلاف حول مسألة إعجازه أهي في اللفظ دون المعنى أم في المعنى دون اللفظ أم في كليهما"[2].

ولعل الجاحظ أن يكون أول من أثار هذه القضية، في تراثنا النقدي، عندما أعلى من شأن اللفظ على حساب المعنى، حيث أكد أن "المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي، والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتمييز اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك"[3]. إذا كان الجاحظ، المفكر المعتزلي، لا يتحرج من الإعلاء من شأن اللفظ على حساب المعنى، فإن باحثين آخرين لم يكونوا ليسلموا بهذا الرأي. تحول بينهم وبين ذلك اعتبارات عقدية وتقديرات مذهبية ترى في إجراء المفاضلة بين اللفظ والمعنى تجاوزا لمسألة الإعجاز القرآني، التي تقتضي مراعاة جانب اللفظ

---

[1] -الجابري، بنية العقل العربي، ص: 41

[2] -محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية، ص: 86

[3] - الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص: 444.

والمعنى معا. ولذلك عمد ابن قتيبة إلى المساواة بين اللفظ والمعنى في مقدمة "الشعر والشعراء"[4]، حيث جعل للفظ مزيته هو الآخر في البيان، كما اعترف له بحظه من الفصاحة والبلاغة. وقد خضعت قضية اللفظ والمعنى للتعديل، في فترة لاحقة من تاريخ الفكر السني، ضمن التسوية التي عرفتها قضية خلق القرآن، التي كانت مثار خلاف حاد بين السنة والمعتزلة. وقد حدث ذلك عندما أنشيء علم الكلام السني على يد أبي الحسن الأشعري، الذي صاغ تصوراته الفكرية في ضوء مقررات الحنابلة، بعد ردته الشهيرة عن فكر المعتزلة، وانحيازه لعقيدة السنة[5]. فإذا كانت عقيدة الاعتزال، التي تقوم على خلق القرآن، قد أتاحت للمعتزلة أن يعدوا الحروف والصياغة اللفظية، بل والمعاني كلها "حادثة"[6]، فإن الأشاعرة وجدوا في نظرية "الكلام النفسي" رأيا وسطا أسعفهم في تجاوز الخلاف القائم بين من يجعل القرآن كله قديما، وبين من يجعله كله حادثا. ومؤدى نظرية "الكلام النفسي"، في العقيدة الأشعرية، أن المعاني (المدلولات) قديمة، لأنها قائمة في ذات الله منذ القدم، أما الألفاظ (الدوال)؛ أي الحروف المنظومة فحادثة. يقول الشهرستاني: "وصار أبو الحسن الأشعري إلى أنّ الكلام معنى قائم بالنفس الإنسانية، وبذات المتكلّم، وليس بحروف ولا أصوات، وإنّما هو القول الذي يجده القائل في نفسه ويجيله في خلده"[7]. وقد مثلت هذه المقررات العقدية أساس التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، حيث أكد "أنك ترتب المعاني أولا في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني، لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب في غاية القوة والظهور، ثم ترى الذين لهجوا بأمر "اللفظ" قد أبوا إلا أن يجعلوا "النظم" في الألفاظ . ترى الرجل منهم يرى ويعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتبة إلا من بعد أن يفكر في المعاني، ويرتبها في نفسه، على ما أعلمناك، ثم تفتشه فتراه لا يعرف الأمر بحقيقته،

---

[4] -ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص: 70.

[5] - يقول أبو الحسن الأشعري: "قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وسنة نبينا عليه السلام، وما روي عن الصحابة، والتابعين، وأئمة الحديث، وكان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل [...] لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين"- الإبانة عن أصول الديانة، ص: 8.

[6] - يقول القاضي عبد الجبار: "ولا خلاف بين جميع أهل العدل والتوحيد في أن القرآن مخلوق محدث مفعول، لم يكن ثم كان" – المغني، ج7 ص: 3. راجع الفصل الذي خصصه عبد الجبار لـ "إبطال القول بأنه سبحانه متكلم بكلام قديم"- نفسه، ص: 84

[7]- الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، ص:309

وتراه ينظر إلى حال السامع، فإذا رأى المعاني لا تقع مرتبة في نفسه إلا من بعد أن تقع الألفاظ مرتبة في سمعه، نسي حال نفسه، واعتبر حال من يسمع منه"[8].

لقد أقام عبد القاهر تصوره لإعجاز القرآن على أساس نظرية النظم، التي تعد ترتيب المعاني، في نفس المتكلم، سابقا على التلفظ بها في مقام تواصلي محدد. ولا تعدو الألفاظ، تبعا لهذا التصور، أن تكون علامات على المعاني ودلائل عليها بما هي "كلام نفسي"، حيث المزية؛ أي جودة التعبير، عند الجرجاني، "من حيز المعاني وليس الألفاظ"[9]. ولذلك يخطئ من يظن أن الألفاظ هي التي ترتب في النصوص وليس المعاني، ومصدر هذا الخطأ، كما بين ذلك عبد القاهر، أن أصحاب هذا الرأي ينطلقون، في بناء استنتاجاتهم، من لحظة الاستماع إلى العبارات اللسانية عند التلفظ بها. مما يجعلهم يتوهمون أن الألفاظ المسموعة تسبق المعاني، والواقع أن ترتيب الألفاظ في النطق يتوالى حسب ترتّب المعاني في النفس أو الذهن: "قد ترى أحدهم يعتبر حال السامع، فإذا رأى المعاني لا تترتب في نفسه إلا بترتب الألفاظ في سمعه، ظن عند ذلك أن المعاني تبع للألفاظ، وأن الترتب فيها مكتسب من الألفاظ، ومن ترتبها في نطق المتكلم"[10]. ونتيجة لهذا التصور أكد الجرجاني أن الألفاظ "خدم المعاني والمصرفة في حكمها، والمعاني هي المالكة سياستها والمستحقة طاعتها"[11]. ولذلك ارتبطت الفصاحة عند الجرجاني بالنظم، الذي يحيل على تعليق المعاني بعضها ببعض، وليس كون الألفاظ بعضها تابع لبعض في التلفظ، لأنه "إذا كان كل واحد منهم قد أعطى يده بأن الفصاحة لا تكون في الكلم أفرادا، وأنها إنما تكون إذا ضم بعضها إلى بعض. وكان يكون المراد بضم بعضها إلى بعض، تعليق معانيها بعضها ببعض، لا كون بعضها في النطق على إثر بعض ،كان واجبا، إذا علم ذلك، أن يعلم أن الفصاحة تجب لها من أجل معانيها، لا من أجل أنفسها، لأنه محال أن يكون سبب ظهور الفصاحة فيها، تعلق معانيها بعضها ببعض. ثم تكون الفصاحة وصفا يجب لها لأنفسها لا لمعانيها"[12].

---

[8] - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 455
[9] -نفسه، ص: 64
[10] -نفسه، ص: 417
[11] -الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 8
[12] -الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 467

واضح أن الاحتدام في النقاش، حول قضية اللفظ والمعنى، في مظهره العام، نقدي بلاغي، لكنه، في جوهره، فكري عقدي، باعثه المناقشات الكلامية، التي تحكمت في الأبحاث الدائرة حول الإعجاز. ولذلك رأى الجابري أن الدراسات الإعجازية هي المسؤولة عن توجيه قضايا البلاغة، ومنها قضية اللفظ والمعنى، وجهة "كلامية"، لأن "المتكلم، الذي كان مشغولا ببيان وجود إعجاز القرآن داخل الدائرة البيانية ولفائدتها، كان عليه أن يكون على معرفة بالأساليب البلاغية العربية، متذوقا لها، كما أن البلاغي والناقد الأدبي، الذي كان مهتما بتحليل مظاهر البلاغة وآلياتها في الخطاب العربي، كان عليه أن يعتمد القرآن كسلطة مرجعية[...] ومن هنا اتجهت المناقشات الكلامية، في موضوع اللفظ والمعنى، اتجاها بلاغيا، واتجهت المناقشات البلاغية، في الموضوع نفسه، اتجاها كلاميا. والنتيجة اصطباغ البحث البلاغي العربي بالصبغة الكلامية"[13].

في المحاضرة القادمة سوف أحدثكم عن قضية نقدية أخرى هي "البيان والبديع".

متمنياتي لكم التوفيق والنجاح

---

[13] - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 76